نسب الكثيرون الى عليوم الثاني الرغبة الشديدة في التشبُّه بنابوليون الكبير فاتحاً وغازياً دون الوصول الى مقامهِ . فاخذت احدى الصحف المزلية هذه الفكرة وصورت امبراطور الالمان لابساً قبعة نابوليون المعروفة وقد نزلت الى تحت أُذنيهِ وهو يقول لمستشارهِ الواقف بقربهِ :

— « اظنُّ ان هذه القبعة كبيرة على رأسي » والمستشار يجيب :

— « بل اظنُّ ان رأس جلالتك صغيرٌ على هذه القبعة ... ! »

والنكات من هذا القبيل كثيرةٌ لا تحصى نكتفي منها بما ذكرنا ونتمنَّى على صحفنا ومجلاتنا الكبيرة ان تفسح في صفحاتها مجالاً لهذا النوع من النقد فانهُ يتضمَّن الجدَّ في معرض الهزل وكثيراً ما يجمع العظة والعبرة الى الفكاهة والنكتة

القاهرة انطون الجميّل

مصر منذ تسعين سنة

(١٢)

حادثة غريبة

بقي الارمني ملازماً الجارية زينب يروي لها القصص والحكايات وكان بين الجيرة بحريٌّ تركي من الاناضول يدعى « حاجي » لحيتهُ حمراء طويلة يجلس مع الارمني ويكلم الجارية من حين لآخر فسألت هذا عن موضوع حديث التركي معها فقال انهُ يعلمها فروض الدين والصلاة وانهُ من المحسنين حجَّ مراراً الى مكة . فلم أرَ بأساً من ان تتعلم فروض دينها واخيراً سمعت هذا الحاج يكرر في حديثهِ كلمتي مسلم ونصراني فسألت الارمني عن ذلك فأجاب : يقول لها انهُ لا يجوز ان يشتري رجل مسيحي امرأة مسلمة . قلت ولكن ذلك جائز في مصر وكل الافرنج والمسيحيين يقتنون العبيد والجواري . قال نعم يجوز لهم (حسب قولهِ) ان يشتروا الحبشيات المسيحيات والزنجيات الوثنيات لا المسلمات

فاستأت من ذلك وخشيت من نتيجة هذا الحديث فرحتُ اقلق راحتي وعيشتي مع جاريتي فلم اشأ ان يعبث هذا التركي بمزاجها ويثير فيها ثائرة العناد والعصيان فذهبت الى القبطان وشكوت اليهِ أمري ورجوت ان يمنع هذا البحري من الكلام مع الجارية . فقال لي لا سبيل الى منعهِ ولكن في وسعك ان تمنع جاريتك عن الكلام معهُ فذهبت الى الجارية وانهيتها

بواسطة الارمني اني امنعها عن الاختلاط مع هذا البحري والكلام معهُ فاظهرت العبوسة والكدر ولم تنطق ببنت شفة

(ثم حدث خصام شديد على اثر ذلك بين دي نرفال والحاج بسبب الجارية وتداخل بعض النوتية في الخصام وكاد يفضي الامر الى ما لا تحمد عقباهُ واخيراً اضطرَّ دي نرفال ان يظهر لهم كتاب توصية من الصدارة العظمى في الاستانة بواسطة الكونت دي رانفيل سفير فرنسا الى محمد رشيد باشا والي ايالة عكاء . فدفعهُ الى الارمني ليقرأهُ على مسمع منهم وتهددهم بالشكوى عند وصوله الى عكاء . فاعترتهم الرعدة والخوف وحنوا رؤوسهم احتراماً عند قراءة كتاب التوصية وهو عندهم بمثابة فرمان وطلبوا منهُ الصفح فصفح عنهم وانتهت المشكلة بذلك)

وفي اليوم التالي رسا بنا المركب عند اسكلة عكاء فظهرت لنا من ورائها جبال فلسطين النضرة الخضراء فمن شهور كثيرة لم تقع عيني الأَعلى جبال مصر القاحلة الجرداء وكانت جبل الكرمل امامنا وعلى قمتهِ الدير المشهور بهذا الاسم تحيط بهِ الحراج الخصبة والاشجار والمروج الخضراء . وعند سفحهِ بلدة حيفا وبيوتها منضدة بعضها فوق بعض كالامفيتياتر وهبت حينئذٍ الرياح الشمالية المنعشة للابدان المنطفة لحرارة الشمس . وبين عكاء وحيفاء خليج كقوس او كنصف دائرة والمدينتان قائمتان عند طرفي القوس

فلما رسا بنا المركب اتى رجال الصحة وفحصوا جوازهُ واوراقهُ (الباطنطا) فعلموا اننا اتينا من بلاد موبوءة بالطاعون فمنعونا من الصعود الى البر والاختلاط باحد غيرانهم اجازوا لنا ان نملأ براميلنا من الماء ونشتري ما نحتاج اليهِ من المأكولات والفاكهة . فدنت منا بعض القوارب واشترينا من بجازتها الخبز والجبن والبطيخ والرمان وغيرها من الاثمار فكانوا يضعونها في سلال ندليها اليهم ونضع الدراهم في اوعية ملآنة من الخل حتى تطهر من الوباء على زعمهم ثم يأخذونها . والنقود التي كانت معنا من مصر غازيات ذهب وغروش وبارات ومصريات (نحاسات) وكنت اود ان ادخل الى المدينة لاتفرج عليها واقابل سعادة محمد رشيد باشا واليها واعطيهُ كتاب التوصية الذي معي من احد رجال الصدارة في الاستانة واطلب منهُ كتب توصية الى حكام الاساكل السورية التي سأزورها (كانت وقتئذٍ مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة لولاية عكاء) اذ ان قوانين الكورنتينا صارمة مشددة فاضطررت ان احفظ الكتاب معي حتى وصولي الى بيروت

وعكاء هي بتولوماييس اليونانية ومقر حكم محمد باشا الجزار الشهير بمظالمهِ ومجازرهِ

البشرية . والمعارك الدموية التي حدثت بينهُ وبين نابوليون بونابرت عند حصارها غير بعيدة عن الاذهان

وفي عصاري ذلك اليوم اقلع بنا المركب من خليج عكاء وكانت الريح موافقة ونحن في فرح وجذل كاننا في يوم عيد لان الماء كثير عندنا والمأكولات والفاكهة جزيلة ووزع القبطان على رجاله الخمر فجعلوا يرقصون و يغنون وتناول قيثارتهُ يعزف بها وغلامهُ يغني يا حبيبي يا عيني يا محبوبي يا سيدي . وكذلك الجارية اشتركت معنا في الفرح واما الارمني فعاد الى اغنيته التركية « بلير بلير استنبولون فرمان . محمود غازي جمبولندة علي عثمان » وكان البحر صافياً رائقاً والجو صحواً والمركب سائراً مقابل شواطئ سليسيريا (اي سوريا المتوسطة بين عكاء وبيروت) التي تمتد جبالها الخضراء من الكرمل الى ان تتصل عند صيداء بجبل لبنان

وبعد مسير ست ساعات وصلنا الى مدينة صور عاصمة فينيقية القديمة التي خربها الاسكندر بعد ان حاصرها حصاراً طويلاً ولم يتمكن من الاستيلاء عليها الاَّ بعد ثلاث سنين و بعد ان وصل الجزيرة المبنية عليها بالبر . ولم يبقَ الآن من هذه المدينة العظيمة الاَّ بيوت صغيرة لصيادي السمك

و بعد خمس ساعات وصلنا الى صيداء صيدون القديمة فظهرت لنا حينئذٍ جبال لبنان الشاهقة بغاباتها النضرة وقراها الكثيرة العامرة موطن الدروز . وصيداء قائمة عند رأس بارز لها مرفأ قديم من آثار الفينيقيين لم يزل بعض حجارته الضخمة المربعة باقياً رغماً عن تلاعب امواج البحر بها مدة الوف من السنين . وهذه المدينة صغيرة الاَّ ان ضواحيها زاهية زاهرة بالبساتين والرياض المغروسة بالليمون والبرتقال والموز والرمان . ولما كان لا يسمح لنا بالنزول اليها فمن العبث اضاعة الوقت بالوقوف فيها . وكنت اود ان اتفرج على هذه المدينة الشهيرة مهبط البحار قديماً وعاصمة حضارة الفينيقيين ومهد التجارة والصناعة . وكانت معاملها كثيرة مشهورة بنسج الاقمشة وصبغ الارجوان وعمل الزجاج وغير ذلك حتى ان هوميروس الشاعر اليوناني خصها بالذكر في قصيدتهِ الالياذة دون باقي المدن الفينيقية وقال ان مصوغات التروادين من صنع الصيدونيين . ولقد صدقت كل انباء التوراة عنها بانها ستصير خراباً وبيوتها منشراً لشباك الصيادين

وبعد ست ساعات اخرى وصلنا الى رأس بيروت . وهذه المدينة على شاطئ البحر عند جون صغير يحيطها من البر سور متخرب ولم تزل بعض جدرانهِ من الجهة الشرقية باقية

وبيوتها حقيرة وشوارعها ضيقة عدا سراي الحكومة التي هي جزء من قصر الامير فخر الدين المعني وبعض دور القناصل ورايات دولهم تخفق فوقها . ووراء السور المدينة الحديثة عند سفح جبل لبنان في منبسط متسع من الارض وبيوتها بيضاء مكللة متفرقة بين اشجار التوت والتين كأنها مقاصف في وسط الحدائق . ومنظر بيروت من المرفا من ابدع المناظر تظللها من ورائها تلال واكام خضراء زاهرة وغياض زاهية وقرى عامرة تمتد الى رأس البترون وفوقها جبل لبنان بحقوله الخصبة وارزه المشهور وقراه وضياعه ووديانه وكنائسه الكثيرة متفرقة على جوانبه من اسفله الى اعلاه ووراءه تظهر قمة جبل صنين الشامخة المكللة بالثلوج وكل هذه المناظر تظهر للرائي من المرفا . وبيروت بموقعها هذا بين البحر ولبنان ومناظرها البديعة كانها مدينة من مدن سويسرا بين جبال الالب البيضاء وبحيرة جنيف الصافية

وخارج سور المدينة ميدان واسع في وسطه برج عالٍ مربع الشكل من بناء الامير فخر الدين الشهير (هو برج الكشاف وقد هدم الآن واما الامير فخر الدين المعني فهو الذي استقل بحكم ولاية بيروت ولبنان)

ومن جهتها الجنوبية صحراء رملية كبيرة غرس فيها هذا الامير غابة كثيفة من شجر الصنوبر لتقي المدينة من تيار الرمال

رسا بنا المركب عند الحجر الصحي . وهو بناء واسع قائم على صخور او جزيرة صغيرة منفصلة عن البر يقال لها الكورنتينا وتخفق فوقها الراية الصفراء . فانتظرنا بضع ساعات الى ان حضر الناظر وهو رجل تركي وبعد ان فحص جواز مركبنا ونوتيته وظهر لديه ان صحتنا جيدة أجاز لنا الصعود الى البر لنقيم مدة اربعين يوماً تحت الحجر الصحي . ثم وضعنا في القسم المخصص للاوربيين مع جاريتي والشاب الارمني واما القبطان وبحارته فأجيز لهم قضاء مدة الحجر في المركب تحت حراسة رجال الصحة . وكان الناظر رجلاً عاقلاً اديباً كريم الخلق عاملنا بالتؤدة واللطف . فوجدنا في اسرنا هذا من وسائل الراحة ما جعلنا ننسى مشقة السفر واجاز لنا التمشي في الميدان والنزهة عند شاطئ البحر والاستحمام فيه تحت مراقبة الحراس وسمح لنا بالنزهة في حديقة الكورنتينا . وكان الاكل يقدم لكل من المحجر بثمن يومي معلوم وهو مؤلف من قصعة من العدس وقليل من البيض والجبن الاّ انهُ كان يسمح لنا ان نشتري من فلاحي لبنان ما يأتوننا بهِ من الحليب والفاكهة والدجاج والخمر واثمانها زهيدة جداً فكنا نشتري الليرة (الرطل) من الضأن بخمسة وعشرين سنتيماً (نحو غرش صاغ)

والزجاجة السمينة بنصف فرنك والعشر البيضات بعشرين بارة واقة العنب او التين بخمس وعشرين بارة (نحو نصف غرش مصري) . وزجاجة الخمر الفاخر الذهبي اللون المصنوع في اديرة جبل لبنان بعشرين بارة . وكان بعض الاروام يأتينا بالخمر القبرصي ويبيعنا الزجاجة منهُ بنصف فرنك الاَّ انا عدلنا عنهُ الى الخمر اللبناني ذي النكهة والطعم المستطاب ويشبه خمر الماديرا عندنا

بين بيروت ولبنان

ولما انقضت مدة الحجر الصحي خرجنا من الكورنتينا . وقد وفقت الى استئجار منزل خصوصي على بعد نصف ساعة من المدينة عند اسرة مسيحية مارونية وكل المساكن في هذه الضواحي مبنية داخل بساتين التوت والتين . والبيت الذي استأجرتهُ مؤلف من طبقتين فالعليا لي ولحاربتي والسفلى لسكن اصحاب البيت . والبيت مطل على البحر من الجهة الشمالية والغربية على طول الخليج من ميناء البلد الى الحجر الصحي قائم بالقرب من صخور تتلاطم عليها امواج البحر (يؤخذ من هذا الوصف ان البيت كان في حي المدوَّر او في حي الجميزة الآن) وكنا نجتمع مساء مع اهل البيت حول مصطبة مكشوفة من جهاتها الثلاث على البحر وهي بمثابة شرفة كبيرة (فراندا) . والاسرة التي سكنت عندها مؤلفة من رجل جاوز الاربعين مهنتهُ الخياطة ولهُ دكان في سوق المدينة . ومن زوجة وشقيقة لها وبنتين وابن . وقد رأيت من حسن اخلاقهم ورقة جانبهم وآدابهم ما سرني ولو كانوا من طبقة متوسطة في المعيشة ومعظم سكان ضواحي بيروت من السهل الى النهر هم في الاصل من لبنان . واكثر نسائهم جميلات يخرجن بلا قناع سوى منديل رقيق يضعنهُ على رؤوسهنَّ وشال من القطن الملون على اكتافهنَّ على زي النساء القرويات في ايطاليا

وكنت اترصد مرورهنَّ وهنَّ ذاهبات لاستقاء الماء من آبار الصهاريج وعلى رؤوسهنَّ الجرار يخطرن في سيرهنَّ دلالاً . واما نساء الاسر الوجيهة فيجعلن شعورهنَّ فوق رؤوسهنَّ كتاج ويضعن عليهِ طاسة من نحاس او فضة حسب مقدرتهنَّ المالية فوقها غطاء من شاش رقيق . ونساء الامراء في جبل لبنان يضعن على رؤوسهنَّ اسطوانات طويلة من الفضة على شكل البوق يقال لها عندهنَّ الطرطور ويضعن فوقها غطاء من قماش رقيق تتدلى اطرافهُ على اكتافهنَّ وهذا الزي كان شائعاً عندنا منذ القرون المتوسطة ولم يبطل الاَّ في اواسط القرن الماضي

وقد استأنست جاريتي باهل البيت فكانت في اثناء غيابي تنزل اليهم وتحدث معهم وكثيراً ما كانوا يخدمونها وهي جالسة بخيلاء على الطنفسة كانها من « الهوانم » وارق منهم طبقة . وكنت اتركها عندهم مطمئناً على راحتها واذهب الى المدينة او دار القنصل اسأل عن البريد وكنت منتظراً الرسائل والدراهم من اهلي واصبحت في ضيق وحيرة لعدم وصولها وكنت قد طلبتها حينما كنت في مصر لاستعين بها على اتمام سياحتي في جبل لبنان

وحدث لي اثناء اقامتي في بيروت حادث غريب مضحك لم اكن اتوقعهُ . وذلك اني صحوت في صباح احد الايام متأخراً قرب الظهيرة فرأيت فوق رأسي شخصاً طويلاً بثياب سوداء وفي يدهِ كتاب فقال لي باللغة الفرنسوية كيف حالك يا ولدي . فقلت لهُ بخير والحمد لله ولكن المعذرة . . اسمح لي ان انهض والبس ثيابي . فوضع يدهُ على كتفي وقال لا لا ارجوك ان لا تتحرك لا تزعج نفسك . لقد دنت الساعة الاخيرة . فقلت لهُ بدهشة — الساعة الاخيرة ؟ واي ساعة تعني ؟ فقال الساعة التي ستلاقي فيها ربك وتستغفرهُ بالتوبة والندامة عما اسأت اليهِ في حياتك بارتكابك الاوزار والمعاصي . فحدقت فيهِ بدهشة واستغراب وظننت انهُ لا بد ان يكون معتوهاً فقلت لهُ . لا افهم ما تقول وما تقصد من هذا الكلام . قال اريد ان اقبل اعترافك واشهد على وصيتك الاخيرة . فصرخت بغضب فمن انت ايها الرجل فاجاب انا الاب بلانشيت . قلت لقد زدتني غرضاً . قال من الرهبانية اليسوعية فقد حضر بعضهم الى الدير وقال لي ان سائحاً اميركياً غنياً مقيماً عند اسرة مارونية في هذا الحي اشتد عليهِ المرض واشرف على الموت ويريد ان يعترف ويقبل الاسرار ويكتب وصيتهُ الاخيرة . وربما خصص جزءاً من ثروته بديرنا هنا فان الكنيسة صغيرة والمدرسة حقيرة والدير يحتاج الى التوسيع والاصلاح ولما وصلت الى هنا قيل لي ان في هذا البيت سائحاً افرنجياً فادخلوني عليك

فقهقهت ضحكاً عند ما عرفت هذا الخطأ وقلت لهُ اعلم اولاً يا حضرة الاب اني لست اميركياً غنياً . ثانياً ليست لي صلة او اختلاط باحد من جمعيتكم وتختلف عقائدي عن عقائدكم الدينية اختلافاً عظيماً . ثالثاً اني صحيح الجسم فلست مريضاً ولا مشرفاً على الموت وان كنت غير مصدق فانظر

قلت هذا وقفزت بسرعة من السرير الى الارض فضحك الاب بلانشيت وخرج ودقق البحث عن هذه الحادثة وعلم ان في منزل قريب من منزلي سائحاً اميركياً مريضاً

فرجع واعلمني بالحقيقة واعتذر عن خطاهُ . ولما رأيتهُ على جانب من اللطف ولين العريكة عرفتهُ بنفسي وسألتهُ ان يزورني كلما سنحت لهُ الفرصة اذ ليس لي صديق في هذه المدينة أستأنس بهِ

ولما زارني المرة الثانية رأى الجارية وسألني عنها فقصصت عليهِ قصتي وما جرى لي بمصر وكيف اضطررت الى شرائها . فقال لي لقد اسأت كثيراً الى هذه المرأة لانك لا تقدر ان تعصبها معك الى فرنسا كجارية مشتراة ولا اظن انك تحب الاقتران بها . فكان يجب عليك ان تتركها في بلادها فربما وجدت هناك زوجاً يصلح لها او سيداً من جنسها تخدمهُ في منزلهِ ففي المالتين تجد لها مأوى شريفاً تقضي فيهِ حياتها . اما اذا تركتها هنا او في فرنسا حرة وفي غربة وحيدة فكأنك تدفعها بيدك في بؤرة الشرور والفساد فانظر ما انت فاعل يا سيو دي نرفال

فلما رأيت ما قالهُ هذا الاب صواباً جليت الفكر فيما اصنع وعوامل الحيرة تتجاذبني فقال لي لا تزعج نفسك كثيراً سأجد حلاً لهذه المشكلة . ففي هذه المدينة سيدات صالحات يدرن مدرسة للبنات اليتامى الفقيرات فقي وسعي ان اضعها عندهن باجرة زهيدة مقابل نفقاتها وبذلك تجد مأوى شريفاً ويصان مستقبلها . فقلت لهُ لا بأس وانما لا اريد ان ترغم على اعتقال الدين المسيحي وعدا ذلك فهي غيورة على دينها متمسكة بعقائدها اشد التمسك . فهز راسهُ وتبسم ثم التفت نحو الجارية وبدأ يكلمها بلغتها العربية

وبعد بضعة ايام ذهبت وزرت هذا اليسوعي في ديرهِ عند باب بيروت الشرقي قرب برج فخر الدين . وهذا الدير صغير مبني في فناء واسع والكنيسة صغيرة ملاصقة للمدرسة فوقها معشى لغرف الرهبان . فادخلني الى غرفتهِ وطال بنا الحديث عمن زار سوريا من الفرنسويين واخصهم دي لامارتين وقال لي انهُ من اخص اصدقائهِ وغواة اشعارهِ والمولعين بمطالعة كتبهِ . ثم شكا مضايقة الحكومة التركية لهُ اذ لم تسمح لهُ بتوسيع البناء وتشييد غرف لمدروس بعد ان بنى جزءًا من الطبقة العليا ووضع درجات السلم الرخامي منعتهُ الحكومة عن اتمام العمل لا بل حظرت عليهِ ان يضع جرساً فوق الكنيسة فوضع بدلاً منهُ حديدة مسلطة بحبل يقرع عليها بالشاكوش

ثم دار الحديث على الجارية فاشار عليَّ الناصح بان اضعها عند راهبات المحبة حيث تعيش براحة وهناء بعيدة عن الاخطار فاذعنت لمشورتهِ وخصوصاً لكوني عزمت على التجول في جبل لبنان ويسر عليَّ ان اصحبها معي

وفي صباح اليوم التالي صحوت من النوم على صوت الجارية وهي واقفة عند النافذة المطلة على الطريق تصرخ بملء صوتها « بندقية بندقية دروزي دروزي » فنهضت ورأيت طابوراً من الجنود التركية مارة من هناك وهم مسلحون بالبنادق . وفي اليوم نفسه ذهبت الى المدينة وعلمت الحقيقة وهي ان الدروز في جبل لبنان والعداء بينهم وبين المسيحيين قديم العهد حرقوا قرية مسيحية تدعى بيت مري وهي على بعد ساعتين من بيروت فارسلت الحكومة طابوراً من جنودها ليقسموا الفتنة بين الفريقين والحقيقة انها ارسلتهم لمساعدة الدروز اذا تغلب المسيحيون عليهم

وبعد بضعة ايام بينما كنت في المدينة ورجعت قيل لي ان احد امراء لبنان حضر لقضاء اشغال له وزار الاسرة التي اسكن في منزلها ولما علم ان سائحاً فرنسوياً مقيم في المنزل انتظرني مؤملاً ان يراني ويتعرف بي . ولما تأخرت وضع اسلحته في البيت دلالة على الاستئمان وذهب . وفي صباح الغد استيقظت على صليل اسلحة فنهضت مذعوراً واذا بالامير مقبل مع ستة من الفرسان اتباعه وكلهم بالثياب الفاخرة ومتقلدون البنادق وفي اوساطهم الخناجر المفضضة المقابض . وتم التعارف بيني وبين هذا الامير وهو من آل شهاب الاسرة الحاكمة في الجبل ودعاني ان ازوره في بلدته وهي على بعد بضع ساعات من المدينة

ولما رأيت ان لا سبيل الى ابقاء الجارية عندي بعد ان عزمت ان أسير في جبل لبنان اخذتها ووضعتها عند سيدة فرنسوية تدعى مدام كارليس عرفني بها الاب بلانشيت وهي صاحبة مدرسة للبنات فرأيت في هذه السيدة كثيراً من اللطف والدعة وسمو الاخلاق مما جعلني ارتاح الى وضع الجارية عندها ولم تطلب مني سوى ثلاثة غروش في اليوم مقابل قوتها ونفقاتها . وبعد يومين زرت زينب ورأيتها مسرورة في معيشتها فاخذت مدام كارليس ناحية واوصيتها ان لا تبحث معها في الدين وان لا تضطرها الى اعتناق المسيحية

الدروز والموارنة

دخلت مرة الى المدينة وعند رجوعي كان وقت الظهيرة فمررت في طريقي بسراي الحكومة عند البوابة الشمالية فرأيت الناس كلهم نيام فالجمال وحملها والحمار وحماره والحمال وحملها كلهم ممددون على الارض في القيلولة حتى صاحب الدكان تراه نائماً في دكانه وهذه القيلولة شائعة في مصر وسوريا عموماً وكل بلاد الشرق واما في ادريا فغير مستعملة الا من اهل ايطاليا حيث مناخ البلاد واشتداد الحر يقضي عليهم باستعمالها

واما سراي الحكومة فهي قسم من سراي فخر الدين القديمة وقد جعلت واجهاتها كشكات من زجاج كابنية الاستانة وارض السراي وغرفها كلها مرصوفة بالرخام المرمري واركانها الشمالية ملاصقة لبوابة المدينة وهناك نبع ماء تظللهُ شجرة جميز كبيرة

دخلت يوماً الى فندق باتيستا وهو الفندق الاوربي الوحيد في بيروت بالقرب من الميناء تطل شرفاتهُ على البحر وكنت الصدهُ للغداء من حين لاخر لان نفسي عافت المأكولات الشرقية . وكان في هذا الفندق مرسل انكليزي مع زوجتهِ وشقيقتها . وهؤلاء المرسلون لا يخطون خطوة من بلادهم الاَّ مع عائلاتهم وحصل التعارف بيني وبينهُ بواسطة السنيور باتيستا . وبينما كنا على المائدة تجاذب اطراف الحديث حدا بنا الكلام على احوال الجبل واهلهِ وسياستهِ وعن فتنة بيت مري . وكان قد قضى في الجبل نحواً من ستة شهور وطاف في اكثر مقاطعات الشوف لتعليم والتبشير كما قال لي . وكنت اعلم قبلاً ان الانكليز معروفون بميلهم الى الدروز وتعضيدهم وحمايتهم كما ان الفرنسويين يعضدون الموارنة ويحمونهم ولذلك كانت القلاقل والفتن بين الشعبين مستمرة على الدوام . فسألتهُ عن حادثة بيت مري الاخيرة لاستطلع رأيهُ فاجاب — انتهت هذه الحادثة بسلام او بالحري خمدت نارها تحت الرماد . وقد كنت في مقاطعة بكفيا في الاسبوع الماضي . فسألتهُ وماذا فعلت هناك

اجاب بشرت الاهالي بالصلح والسلام . وللانكليز في الجبل اصدقاء كثيرون . قلت ان اصدقاءكم على ما اظن هم الدروز . فهز راسهُ وقال نعم نعم مساكين هؤلاء القوم فالموارنة اكثر منهم عدداً والسلطة المدنية والدينية في ايديهم فيجرفون قراهم ويقتلونهم ويتلفون مزروعاتهم ويقطعون اشجارهم

قلت ولكن الشائع عندنا في فرنسا عكس ما تقول فالدروز هم المعتدون والموارنة المظلومون اجاب بتأوه وتنهد

آه آه الدروز هم المعتدون ؟ .. مساكين هؤلاء القوم كلهم سذج لا يعرفون الشر ورصاصكم يدفعون الموارنة الى الاعتداء على مواطنيهم ولكن كن واثقاً ان انكلترا لا تخلي قط عن حماية هؤلاء المظلومين

سراي بيروت

وفي احد الايام دخلت المدينة للتفرج على سراي الحكومة فرأيت في صحنها الداخلي

جمعاً من الناس وقوفاً وهم بثياب فاخرة عليهم ملامح الوجاهة . فوددت لو اعرف احداً اسألهُ عن هؤلاء القوم وغرضهم . واذ ذاك سمعت صوتاً يناديني باسمي « يا مسيو دي نرفال » فالتفت ورأيت من وراء الكشك الداخلي الشاب الارمني الذي صحبني في المركب من دمياط . ثم اقبل يصافحني بتودد وانعطاف فتفرست فيهِ واذا هو بشكل نظيف وثياب فاخرة على زي موظفي الحكومة التركية وفي وسطهِ بدلاً من الدواة النحاسية دواة فضية بديعة الصنع ورأيت في يدهِ اوراقاً وكتباً وكراريس . وقال انهُ توصل لخدمة الباشا حاكم بيروت بواسطة احد مواطنيهِ الارمن الموظف عندهُ بصفة كاتب سرو فعينهُ الباشا ترجماناً . . . يا للغرابة من احوال الشرق كان هذا الشاب منذ بضعة اسابيع فقيراً صعلوكاً متشرداً بثياب زرية لا يملك سوى دواتهِ والآن اصبح ترجمان الباشا ولهُ لقب « افندي »

فتحادثنا برهة وسألتهُ عن اولئك القوم الغرباء الجالسين في قاعة السراي فقال هم امراء ومشايخ الجبل النصارى جاؤوا يشكون الدروز ويطلبون من الحكومة ان تمنع تعديهم عليهم . فعلى زعمهم ان الدروز تعدوا على املاكهم وكادوا ان يقتلوا باحد منهم منفرداً فتكوا بهِ . وفي الغد ربما يحضر مشايخ الدروز ايضاً ويشكون النصارى . فقلت وماذا سيجيب الباشا قال سيرضيهم ويعدهم بالاقتصاص من الدروز كما انهُ سيرضي الدروز غداً ويعدهم بالاقتصاص من المسيحيين . فقلت ان الحكومة اذاً هي العاملة على التفريق بين الطائفتين . فتبسم وقال نعم وربما كان لاختلاف فرنسا مع انكلترا يد في ذلك

ثم سألتهُ عن الكتب والاوراق التي بيدهِ فناولني بعض تقارير بالفرنسوية احدها من قنصل فرنسا بدمشق عن بعض حوادث بين النصارى واليهود . وكتاب روح الشرائع لمونتسكيو ومجلة شهرية فرنسوية وقال لي ان الباشا امرهُ بان يترجمها الى اللغة التركية . قلت وما غرضهُ من ترجمة كتاب روح الشرائع وهو كتاب فلسفي فقال ان الباشا مهتم بتأليف فرقة « جاندرمة » او بوليس لحفظ الامن وخيل لهُ ان كتاب روح الشرائع يحتوي على القوانين المدنية والجنائية ونظام البوليس . فقهقهت ضحكاً وقلت ليريد الباشا ان يستخرج قوانين البلاد واحكامها من هذا الكتاب

ثم ودعت الشاب ودعوتهُ لان يزورني في منزلي وخرجت من هنالك وجلت في اسواق المدينة وكلها ضيقة مسقوفة على مثال اسواق بلاد الشرق قد تخللها اشعة الشمس فاشتريت بعض اقمشة حريرية من صنع دمشق وكوفية وعقالاً على زي البدو ووقفت عند احد باعة المشروبات المثلجة وهم يتفننون في صنعها واتقانها ويأتون بالثلج من اعالي جبل صنين . ومررت

بجامع المدينة الكبير وكان قبل الفتح كنيسة يونانية ولما استولى الصليبيون على بيروت اعادوهُ كنيسة كما كان ودفنوا فيها امير مقاطعة بريتاني الفرنسوية من امراء الصليبيين ولم يزل قبرهُ ظاهراً في صحن الجامع

ثم خرجت من السوق وذهبت الى الميناء وهناك دكاكين التجار الافرنج واكثرهم ايطاليون ومرسيليون وبالقرب منها حارة الارواميين وكلهم هناك يقالون وخمارون واصحاب قهوات وخرجت من الميناء واتبعت شاطئ البحر الى ان وصلت الى رأس بيروت وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وانتشرت اشعتها الذهبية على مرآة البحر الصافية ورأيت هناك جمعاً من الغلمان والبنات الصغار يستحمون في برك بين الصخور وعلى ما ظهر لي أن تلك البرك قديمة منحوتة في الصخر على اشكال مختلفة بين مربعة ومستديرة وقعرها مبلط بالرخام

ثم خرجت من المدينة من احدى بوابات بيروت وهناك بعض اعمدة قديمة من الغرانيت الاحمر ملقاة على الارض وعلى ما يقال ان ميدان الالعاب الذي انشأهُ الملك هيرودس اغريباس كان هناك

الخاتمة

(بعد ان زار السائح الامير اللبناني في بلدته ومكث عندهُ يومين رجع الى بيروت فوجد رسائل من اهلهِ وذويهِ تستدعيهِ الى بلادهِ فترك الجارية في مدرسة مدام كارليس بعد ان اوصاها بالعناية بها ودفع لها مبلغاً من المال لنفقاتها . ثم ابحر راجعاً الى فرنسا وهناك ابتدأ ينشر رواياتهِ واشعارهُ وسياحاتهِ وكان يحرر في جريدة «لابريس» بالاشتراك مع نخبة الكاتب الشهير . ثم احتدم الجدال في الجرائد بينهُ وبين بعض الكتاب والشعراء وانتقدوا كتاباتهِ واشعارهُ انتقاداً مرّاً وكان ذلك سبباً لاختلال قواهُ العقلية من تأثير الغم والكدر . وفي تلك الاثناء ورد من بيروت نبأ موت الجارية زينب فجزع عليها جزعاً شديداً واصابتهُ السوداء فارسل الى البيمارستان وبعد بضعة اسابيع وجد مشنوقاً في غرفتهِ فحمل ودفن باحتفال عظيم نظراً لما كان من المكانة في عالم الكتابة والادب . ولهُ مؤلفات كثيرة بين روايات تمثيلية وقصائد شعرية وسياحات وكلها طبعت بعد وفاتهِ بزمن وجيز . انتهى)

ديمتري نقولا